

الثقافة الشعبية الجزائرية في منطقة الطارف -الولائم أنموذجا

Algerian popular culture in the region of Al-Tarf - the opportunity is a model

هاجر حمداوي، جامعة الشاذلي بن جديد، الطارف، الجزائر.

hajorwhajorw@gmail.com

ملخص:

يشكل التراث الشعبي الماضي والحاضر والمستقبل لكل امة تقدر وتحترم ماضيها ، لأن من لا ماضي له لا مستقبل له، فهو هوية كل فرد، ولعل أهم الجوانب التي تعبر عن حياة أمة هي العادات والتقاليد التي تجمع بينهم، مهما اختلفت توجهاتهم العرقية والفكرية ومثال ذلك الوليمة والختان والجنازة، التي تعد هذه العادات ظواهر اجتماعية مارسها الأفراد في كل المناطق الشعبية فأصبحت ثقافة راسخة لا بد منها ونتاج مادي تتوارثه الأجيال وحفظته الذاكرة، ومنه كان موضوع المقال الموسوم ب: " الثقافة الشعبية الجزائرية في منطقة الطارف -الولائم أنموذجا ولدراسة هذا الموضوع كان لا بد لنا من إتباع منهج معين، وقد اخترنا المنهج الأنثروبولوجي الذي يهتم بدراسة الإنسان من جميع نواحي حياته الاجتماعية والنفسية والحضارية الى غير ذلك، وتهدف هذه المداخلة لإبراز أهمية الموروث الشعبي خاصة الوليمة والجنازة و الختان التي أسهمت بشكل كبير في ترسيخ القيم والأخلاق والمحافظة عليها ولم شمل العائلات.

الكلمات المفتاحية:

الثقافة الشعبية، منطقة الطارف، الوليمة، أنثروبولوجيا.

Abstract:

It is the identity of each individual, and perhaps the most important aspects that express the life of a nation are the customs and traditions that combine them, regardless of the difference in their ethnic and intellectual orientations, such as Feast and circumcision funerals, which are the habits of social phenomena practiced by individuals in all popular neighbourhoods have become a well-established culture that should be material and inheritance produces generations and recorded memory, it has been the article is marked by the subject: "the Algerian popular culture in the

region of El Tarf - the opportunity a model to study the subject, it was necessary for us m Follow a particular approach, we chose the anthropological approach that is interested in studying the human being from all aspects of social, psychological and cultural life to the next, and the purpose of this intervention to put in evidence the importance of folk tradition, especially waleemah funeral and circumcision, which has contributed significantly to the consolidation of values, ethics and the preservation and reunification of familie.

Key words:

Popular cultur, eltaref area, feast, anthropology.

مقدمة:

مرت كل أمة على مر الزمان والعصور بمجموعة من المفاهيم والقيم والمبادئ الراسخة في شتى مناحي الحياة الفكرية والاجتماعية والاقتصادية، وهو ما يعرف بثقافة هذه الأمة والذي يميزها عن غيرها من الأمم فتعمد الى توثيق هذه الثقافة عن طريق تأليف الكتب والرسومات والمخطوطات، لذا توسعت دائرة الثقافة لتشمل كل ما خلفه الإنسان مما أدى الى كثرة وتباين التعاريف حول مفهوم الثقافة عند العلماء والباحثين.

1-تعريف الثقافة:

أ-لغة:

ذكر ابن فارس في معجمه مقاييس اللغة ان مادة (ث.ق.ف) " (ثَقِفَ) الثَّاءُ وَالْقَافُ وَالْفَاءُ كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ لِمَا يَرْجِعُ الْفُرُوعُ، وَهُوَ إِقَامَةُ دَرَّةٍ السَّيِّءِ. وَيُقَالُ ثَقَّفْتُ الْقِنَاةَ إِذَا أَقَمْتُ عَوْجَهَا. وَثَقَّفْتُ هَذَا الْكَلَامَ مِنْ فُلَانٍ. وَرَجُلٌ ثَقِيٌّ لَقِيٌّ، وَذَلِكَ أَنْ يُصِيبَ عِلْمٌ مَا يَسْمَعُهُ عَلَى اسْتِوَاءٍ. وَيُقَالُ ثَقَّفْتُ بِهِ إِذَا ظَفَرْتَ بِهِ. قَالَ:

فَأِمَّا تَثَقَّفُونِي فَاثْقُلُونِي ... وَإِنْ أَثَقَّفَ فَسَوْفَ تَرُونَنِي بَالِي

فَإِنْ قِيلَ: فَمَا وَجْهُ قُرْبٍ هَذَا مِنَ الْأَوَّلِ؟ قِيلَ لَهُ: أَلَيْسَ إِذَا ثَقَّفَهُ فَقَدْ أَمْسَكَهُ. وَكَذَلِكَ الظَّافِرُ بِالسَّيِّئِ يُمَسِّكُهُ. فَالْقِيَّاسُ بِأَخْذِهِمَا مَأْخِذًا وَاحِدًا. " ¹ ، ويرى ابن منظور أن مادة (ث.ق.ف): "أهملها اللئيث واستعمل ابن الأعرابي الثَّطْفَ قَالَ: هُوَ النُّعْمَةُ فِي الْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ وَالْمَنَامِ. وَقَالَ شِمْرٌ: الثَّطْفُ النُّعْمَةُ.

ثَقِفَ: ثَقِفَ الشَّيْءَ ثَقْفًا وَثِقَافًا وَثُقُوفَةً: حَدَقَهُ. وَرَجُلٌ ثَقْفٌ «2» وَثَقِفٌ وَثَقْفٌ: حَازِقٌ قِيَمٌ، وَأَتْبَعُوهُ فَقَالُوا

من خلال التعاريف السابقة للثقافة اصطلاحاً يمكن القول ان الثقافة الشعبية عبارة عن مجموعة من العادات والتقاليد والأمثال وغيرها من الأشكال الثقافية الأخرى التي تسود الأوساط الشعبية في المجتمع كما تعرف الثقافة الشعبية على أنها " ظاهرة اجتماعية شاملة تكتسي طابع الواجهة التاريخية العاكسة للعناصر السياسية والاقتصادية، وبذلك تصبح الثقافة الشعبية مؤشراً على تحول باتجاه إثبات الذات وبلورت توازن الشخصية الاجتماعية والنفسية في علاقتها بالمجتمع"⁷

من خلال هذه التعريفات يمكن القول أن الثقافة الشعبية جسد متكامل يضم بين جنباته العديد من الأشياء التي تحدد ثقافة الشخص أو الفرد والجماعة مثل اللباس والعمران والولائم وغيرها وتتميز بالتنوع وتقوم على مجموعة من القيم التي يربطها ويتمسك بها ويحرص على الحفاظ عليها وبها يتميز كل مجتمع عن الآخر.

2- تحليلات الثقافة الشعبية:

تعد الثقافة الشعبية نوع من الموروث الذي يتناقله أبناء المجتمع الواحد جيلاً عن جيل في أشكال مختلفة كالعادات والتقاليد والمعتقدات الفكرية والدينية إلى غير ذلك، لذا نجدها تتجلى في مظهرين كبيرين هما:

أ- الثقافة المادية:

تعتبر الثقافة المادية من أهم مجالات التراث الشعبي وهذا راجع إلى ارتباطها ارتباطاً مباشراً بالاحتياجات اليومية بالإنسان وتشمل " الأشياء التي صنعها أو استخدمها الإنسان البدائي إلى المركبة الفضائية، أي كل ما يستطيع من عناصر وأشياء التي تخضع دائماً لعامل التعبير والتي سعى الإنسان لاكتسابها واختلافها لإشباع حاجاته الأساسية.

وهي تشمل ميدان العمارة بشكل عام وما يحتويه كالمواقع الأثرية والمدن والمتاحف والمباني والمنشآت ومختلف وسائل النقل وكذلك الآداب والفنون كما يطلق عليها بالتراث الأدبي والفني ويتمثل في الملابس والحلي والآلات الموسيقية والمخطوطات والصناعات والحرف اليدوية

8

وهذا النوع من الثقافة يجري تداولها عن طريق التناقل الشفهي، والشفهية هنا لا

تعني

مجرد التلفظ بالكلام، وإنما المقصود بها التواصل الشخصي المباشر في كل صورة، فالمهنيون والمزارعون والرعاة والصيادون وأصحاب الحرف مثلا ينقلون جانبا كبيرا من مهنتهم وخبرتهم المهنية ومعرفتهم الكبرى الى أولادهم عن طريق التدرج في احتذاء الولد حذو الأب على المستوى الحركي والأدائي في المقام الأول ثم يأتي التوجيه اللفظي وأهم ما يميز الثقافة المادية هو أن من مكوناتها رغم تنوعها واختلافها تختص بالملموس من صنع الإنسان بغض النظر عن حجمه أو استخدامه وهو ما يجعلها تسمى بالثقافة المادية⁹.

فالثقافة المادية إذن هي تراث مادي ملموس ترتبط بمنتجات السلوك البشري أي ما يستعمله الإنسان في حياته وتمتاز بالتغير والتنوع وترجع أهميتها في أنها تجعلها تستخلص الكثير من حياة الشعوب البدائية وثقافتهم من خلال مخلفاتهم المادية وكذلك يمكننا التعرف على ماضي بعض القبائل والجماعات التي ليس تاريخ مكتوب أو سجلات مدونة من خلال قصص عناصر حياتهم الثقافية اللامادية.

ب- الثقافة اللامادية:

وهي عبارة عن العادات والتقاليد والمفاهيم والقيم والاتجاهات والاعتقادات التي تؤمن شعوب معينة ومجتمعات دون غيرها وتعتمد " على كل ما يبتكره الإنسان ويستخدمه من تفسير سلوكه وأفعاله وتوجهها ولكن يشترط ألا يخرج عن نطاق عقله أو تفكيره فهي تمثل جميع السمات الثقافية غير الملموسة كالمهارات الفنية والمعايير والمعتقدات والاتجاهات واللغة وغير ذلك مما تناقله الأفراد جيلا عن جيل¹⁰

إذن فالثقافة اللامادية تتضمن العرف وقواعد السلوك والأخلاق والقيم والتقاليد واللغة والفنون وكل عناصر السيكولوجية التي تنتج عن الحياة الاجتماعية والتي تتمثل في القيم والمعتقدات والعادات والنظم الاجتماعية والرموز والأسطورة والحكاية والأمثال التي تعد جوانب لا مادية للثقافة. فالثقافة اللامادية تعبر عن مظهر الفكر الإيديولوجي للتفاعل الإنساني، وعليه فالثقافة اللامادية تشمل دائما أشياء غير واضحة وليست ملموسة ولكنها تلعب دورا هاما في سلوكنا وحياتنا اليومية مثل الدور الذي تلعبه العادات والتقاليد وغيرها وللثقافة اللامادية نوعان:

- القبولي: ويتمثل في الأمثال والحكم والأغاني والحكايات والنكت والألغاز والدعوات والنداء وما يكتب من كلمات وجمل على الجدران وعلى الأبواب وشواهد القبور وغيرها.

- الفعلي: يتضمن الاحتفالات والأعياد والمناسبات من زواج ووفاة وولادة ورقص والألعاب والزيارات¹¹

من خلال هذا العرض للثقافة المادية واللامادية يمكن القول أن الثقافة بشقيها المادي واللامادي تعبر عن عقلية المجتمع على المستوى الفردي والجماعي لأن كل منهما يتأثر بالأخر وبالتالي فالثقافة الشعبية توحد الأفراد وتضع لهم قواعد سلوكية مشتركة تحوي ثقافة معينة تحدد رؤية كل فرد لما يحيط به وكيفية التعامل معها.

الطعام ليس مجرد مجموعة من المنتجات يمكن استخدامها في الدراسات الإحصائية أو الغذائية بل يعد مجال أولي لنقل المعنى، لأن تناول الطعام نشاط سياسي يتكرر باستمرار. كما يؤدي وظيفته بشكل فعال بوصفه نسقا من أنساق التواصل، لأن الناس من جميع أنحاء العالم ينظمون طرق تعاملهم مع الطعام في نسق يخضع لنظام مواز للأنساق الثقافية الأخرى و يبت فيها معنى، إذ أن الطعام والمطبخ يقفان بين الطبيعة والثقافة ويتوسطان بينهما، وأنها يعدان وسيلة من وسائل التعبير عن الغنى الثقافي والاجتماعي ومؤشرا على التحولات السوسيوثقافية، الأمر الذي جعل المجتمعات تولي أهمية عظيمة للطعام، وقد درس دراسات مستفيضة من خلال المناطق فالطعام وسيط يمكن من خلاله عرض أيديولوجيات ثقافية شديدة التنوع وتتكون قواعد التعامل معه وفق تعبير الثقافة المادية واللامادية وتعبر عن عقلية المجتمع ومن بين هذه الثقافات نجد الولائم، التي عهدنا وجودها في الجنازات والختان والأعراس وقد تغيرت بتغير الزمن وتطوره حتى أصبحت تشبه بعضها البعض.

فهذه المناسبات الثلاث تقدم مجموعة معينة من الأكلات والولائم، بحيث يحتفل أو يحزن أصحاب المأتم بتقديم مأدبة للضيوف كرما أو فخرا، ولعل لكل نوع من الأكل رمز يرمز إليه ومعني يشير له.

1- الختان:

تغتئم بعض العائلات الجزائرية ليلة النصف من رمضان للاحتفال بختان أطفالها تيمنا ببركة وخير هذا الشهر الفضيل، حيث تكثر الأفراح وتتعالى زغاريد النسوة ويجتمع شمل الأهل والأحباب في سهرة رمضانية تعبر عن الألفة والتضامن.

ومع اقتراب نهاية شهر رمضان، تتعالى أصوات الفرح من المنازل عبر البلاد معلنة للجوار عملية ختان أخرى تم الانتهاء منها، وهذه عادة جزائرية متوارثة منذ القدم، حيث يرتدي الطفل لباسا تقليديا أبيض من رأسه إلى أخمص قدميه، ويحمل إلى عيادة الطبيب لختانه، وبعد سويغات قليلة، تتعالى الزغاريد والأهازيج إيدانا بوصول الطفل الذي يكون محط أنظار الحضور واهتمامهم.

وتسارع جمعيات خيرية في مثل هذه المناسبات إلى مد يد العون للعائلات التي لا تستطيع دفع مصاريف ختان ابناتها فتدخل البسمة عليهم، وتغمر مظاهر الفرحة الأجواء وتدوي الزغاريد وتسطع الشموع كما تفوح رائحة الحناء رغبة في التخفيف عن الطفل ومنعه من التفكير في الألم الذي يشعر به حيث تقدم له الهدايا والمال والحلوى للحفاظ على هدوئه. ومهما كانت الأضرار والألام قائمة، إلا أن السعادة تعم كل بيت تتم فيه عملية "الطهارة" كما يسمونها في المجتمع الجزائري. وعادة يفضلون اختيار ليلة النصف من رمضان لتكون يوم ختان ابنهم ذي السنين أو الثلاث سنوات كما هو متعارف عليه لديهم.

ومن أهم ما يلبس الطفل في الختان: الطربوش، حذاء البابوش، القندورة، سروال المدور القميص الأبيض والقطعة العلوية المصنوعة من قماش القطيفة والمطرزة بالفتلة الذهبية.



صورة للباس التقليدي الجزائري "الختان" في منطقة الطارف

مستلزمات تبدأ الأم في تحضيرها لهذه المناسبة الغالية التي تجمع شمل الأهل والأحباب في سهرة رمضانية تغمرها أجواء الفرحة والسرور، وهناك ما يسمى يوم الحناء بحيث يتم التحضير إليه وهي الليلة قبل حفل الطهور بحيث يتم استدعاء مجموعة معينة من الأصدقاء والمعارف، والباس الطفل الزي التقليدي، وإقامة مأدبة للاحتفال بهذا اليوم والتغني به ومنه يجتمع الأهل والأحبة، بوجود هذا الطفل وتوج الحفلة بوضع الحناء في يديه مرفوقة بالحلوى "الدراجي" لتكون فأل خير عليه في الأيام القادمة، فحفلة الحناء تحوي على العديد من الطقوس والمعتقدات الشعبية منها وضع ما يسمى "كتاب" لحماية الطفل من الحسد.

يوم الحناء:

في يوم الحناء تقوم الأم والجدة بتحضير الشخشوخة للحضور مرفقة بمجموعة من الأطعمة، وفي المساء يقدم لهم القهوة مرفقة بأنواع نت الحلويات أهمها البقلاوة والمقروض وهي حلويات تقليدية متوارثة تدل على البهجة ومرور باقي الأيام مروراً حلواً. وبحلول الليل تقدم مأدبة عشاء كبيرة للحاضرين منها شربة الفريك والكسكس وهو طعام تقليدي مصنوع من القمح تصنعه النساء في البيت قديماً، ووجوده في طاولة الأكل ضروري كونه طبق رئيسي ورمز من رموز ثقافتنا الشعبية، وبعد الانتهاء من العشاء يأتي وقت ما يسمى الحناء وفيه يضعون النقود في كفوف الطفل، والهدايا ويرشق بالحلوى ويأكلها ويدوى المنزل بالزغاريد والرقص والغناء وبين الحين والآخر يقدم الشاي مرفقاً بأنواع من المكسرات. ولعل كل هذه الولايم تقدم على شرف هذا الطفل انطلاقاً من معتقدات سائدة وهي وجوب تقديم كل هذه المأكولات تفاعراً، أو كقربان لله تعالى لحفظ ذلك الطفل من كل عين أو مكروه قد يصيبه في وقت ما.

2- الزّواج:

يختلف الزّواج باختلاف المجتمعات في أشكاله وأنواع احتفالاته بطرق يقرها المجتمع ويفرضها عليه أفرادها وتختلف هذه العادات من مجتمع لمجتمع آخر، وترتكز هذه على القيم السائدة التي تميز الطابع المحلي لثقافة ما عن الثقافات الأخرى وفي منطقة الطارف تتنوع أنماط الزّواج من منطقة لأخرى، وأشهر ما في الزفاف اللباس والديكور، وما يهمننا هو المأكولات وسلوكيات تناول الطعام وعاداته أمرها فالولايم المجتمعية تقام دورية للجماعات الاجتماعيّة والمحلية والواجبات المتبادلة، كما تؤكد المشاركة في الطعام بقاء الجماعة على قيد الحياة. ومن بين استعدادات حفل الزفاف والتي ستجعله خالداً وحدينا لمدة طويلة هي وليمة العرس فهي باهضة الكلفة، وفي منطقة الطارف يتم إعداد الطعام للمدعوين والحاضرين بأطعمة خاصة بالمناسبة وفي نفس الوقت تستخدم كرموز وإشارات، ففي القديم كان الكسكس يستخدم كطبق رئيسي والمفروض في ولايم الأعراس، وبمرور الزمن ظهرت مأكولات جديدة وتنوع في المأكولات منها: "طاجين جبن" و مرقّة حلوة بأنواع المكسرات والأشباح الصفراء والبوراك إضافة إلى أنواع من الحلويات والفواكه والمشروبات، وهذا ما يكلف كثيراً.



ومن هنا يتضح أن هذه المناسبة عبارة عن إعلان وفخر بالوضعيات الاجتماعية، حتى أنّها لم تعد تقام في المنازل بل تقام في صالات الأعراس وهي باهضة الثمن، فهذه الأعراس عبارة عن تبيان قيمة ونفوذ الأسر والعائلات ورسالة للمجتمع وهذا ما جعل لفقير يتيه في



زحام هذه الحياة وأصبح مجبرا لأن يقيم عشاءً فاخرا ومأدبة كبيرة والتي تكون في أغلب الأحيان عن طريق الاستدانة والاقتراض، فيتكلف فوق طاقته خوفا من كلام المجتمع.



صورة للأكلة الشعبية "مرقة حلوة"

3- الجنازة:

هي مراسم تقام لتشييع وفاة شخص، وغسل الميت وتكفينه وتطيبه بالعطر عادات جنازية لا تختلف كثيرا في الديانة السماوية بشرائعها، وعلمها فالمسلمون تختلف طقوسهم وأشكال الحزن على الميت واتجاه دفنه وهو ما يعلمه جيدا أتباع كل منطقة. ولا زالت العادات الجنازية في منطقة الطارف تقتضي تحضير مأدبة ووليمة وتمثل هذه الولائم في مجموعة من الأطعمة بالرغم من مرور آلاف السنين. فلا زالت بعض الريفيات تخرج حاملة الطعام للمقابر توزعه كنوع من الصدقة على الميت، وأول يوم يموت فيه الميت يقومون بتحضير: "الملة" وهي تصنع من السميد والزبدة وتشكل ثم تطبخ في "الطاجين" ليخرج ذلك الدخان الكثيف.



الأكلة الشعبية "الملة"

وتقدم مع التمر واللبن، وفي الغداء تحضر مأدبة صغير متمثلة في " الشربة " و الكسكسي أو التليتلي وهكذا مرور ثلاثة أيام و في اليوم الثالث تقام وليمة كبيرة يتم فيها دعوة الأقراب و الأصدقاء و الجيران و يتم فيها ذبح ذبيحة و طبخ مجموعة من الأطعمة منها الكسكس وهو الرائج وكذلك الفريك، و السلطة و أنواع المشروبات، ثم تقدم الملة.



الأكلة الشعبية " الكسكس "

خاتمة:

ومن خلال ما تقدم توصلنا إلى مجموعة من النتائج أهمها:

- ❖ لكل أمة ثقافة تميزها عن باقي الأمم، هذه الثقافات تمارس وتختلف بدورها من منطقة إلى أخرى.
- ❖ تنقسم الثقافة إلى ثقافة مادية وهي تشمل العمارة والمتاحف والمواقع الأثرية أما اللامادية فهي - تشمل السلوكيات القولية وال فعلية مثل الأغاني والحكم...الخ.
- ❖ تتجلى الثقافة الشعبية في المورثات التي يتناقلها المجتمع عبر الزمن.
- ❖ تشتهر كل منطقة بنوع خاص من الولايم تجعلها تختلف عن غيرها من المناطق.
- ❖ لكل من الختان والأعراس والجنازات ولائم تناسب كل منها.
- ❖ تقام الولايم في الأعراس بغية التفاخر مما جعل الفقراء يتهمون في زخم الأغنياء.
- ❖ لكل طعام رمز يرمز إليه.

الهوامش

- ¹ - ابن فارس، مقاييس اللغة، ت عبد السلام هارون، دار الفكر للطباعة والنشر، (دط)، 1979، مادة (ث.ق.ف).
- ² - ابن منظور، لسان العرب، ت احمد حيدر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، مادة (ث.ق.ف).
- ³ - محمد المكاوي، الانثروبولوجيا الدراسات النظرية، دار النشر للتوزيع، القاهرة، مصر، ص 44.
- ⁴ - فارس خليل، التطور الثقافي، مكتبة القاهرة الحديثة، مصر، 1960، ص52.
- ⁵ - محمد عباس إبراهيم، الثقافة الشعبية الثبات والتغير، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، دط2009، ص 22/21.
- ⁶ - عزيز العريايوي، الثقافة الشعبية وآدابها في الجزائر، مجلة عالم الفكر، مجلد 42، العدد02، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، أكتوبر، 2013، ص120.
- ⁷ - عزيز العريايوي، الثقافة الشعبية وآدابها في الجزائر، ص 121.
- ⁸ - التجاني مياطة، دور التراث المادي واللامادي لمجتمع واد سوف، مجلة الدراسات والبحوث الاجتماعية، العدد06، جامعة الواد، الجزائر، افريل، 2014، ص155/156
- ⁹ المرجع نفسه، ص 156
- ¹⁰ - التجاني مياطة، دور التراث المادي واللامادي لمجتمع واد سوف، ص 156.
- ¹¹ المرجع نفسه، ص 156.